تقديم

يتناول هذا الكتاب دراسة عن اليهود في مصر ما بين الاحتلال البريطاني للبلاد عام ١٨٨٢م، وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م وبدء النزوح اليهودي الكبير إليها، ليس فقط من مصر، وإنما من شتى أنحاء العالم.

وأهمية هذه الدراسة تصدر عن أن اليهود في كل الأحوال استمروا يشكلون شيئًا متمايزًا عن النسيج المصري العام، فلم يستطيعوا أن يدخلوا في خيوط هذا النسيج، وهو الأمر الذي خرجت به الباحثة الدكتورة سعيدة محمد حسني.

فعلى المستوى الاقتصادي برز اليهود في مصر في مجالات محددة كادت تكون مقفلة عليهم، وهم بذلك احتلوا مكانًا وسطًا بين الرأسمالية الأوربية التي استكملت هجمتها على مصر في أعقاب عام ١٨٨٢م، وبين سائر المصريين الذين كانوا بمثابة السوق للطرفين.

وعلى الصعيد الاجتماعي استمرت فكرة «الجيتو» تهيمن على وجودهم على الأرض المصرية، سواء أولئك الذين امتدت جذورهم فيها، أو الآخرين الذين وفدوا إليها.

وإن كان يلاحظ أن هذا الجيتو قد أفرز نتيجة لطبيعة الحياة السياسية التي عرفتها مصر بعد إعلان استقلالها عام ١٩٢٢، أفرز بعض الأسر التي لعبت

دورًا هامًّا في الحياة السياسية، مثل أسرة قطاوي التي تولى عميدها الوزارة، وهو تولي نظر إليه في تاريخ مصر الحديث بأنه حدث منفرد.

وبحكم أن اليهود استمروا يشكلون جماعة شبه مغلقة، فقد كان من الطبيعي إزجاء عناية خاصة بوضعهم القانوني وتنظيماتهم الطائفية، مما أفرد له هذا العمل فصلًا خاصًّا.

يكشف هذا العمل عن نشاط الجالية اليهودية في مجال الصحافة، ضمن مجالات ثقافية أخرى تحرتها الباحثة، وأهمية هذا المجال أنه يقدم صورة للحياة اليومية لليهود بكل أبعادها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية.

ناقشت الباحثة في هذا العمل قضية خلافية ظلت تثير جدلًا طويلًا بين المشتغلين بالأفكار السياسية في مصر، هي قضية دور اليهود في نشر الماسونية والشيوعية في مصر، وما إذا كان هذا الدور يمثل محاولة من جانبهم لإدخال مثل هذه الأفكار، لمسخ الهوية العربية الإسلامية لمصر، وهو ما ارتآه جانب من الكتاب المحافظين، أو حتى لاختراق المجتمع المصري، وهو ما ارتآه جانب آخر من الكتاب الوطنيين، أم أنَّ ذلك الدور قد نشأ من وضعهم كأقلية، هذا من جانب، ومن اتصالهم بالثقافات الأوربية من جانب آخر.

ومع هذه القضية الخلافية عنيت الدراسة بالجانب الآخر؛ الجانب المعروف في نشاط اليهود السياسي، وهو الجانب المتعلق بنشاطاتهم سواء في العمل الحزبي أو في المؤسسات البرلمانية، ورغم محدودية هذه النشاطات فقد كانت جديرة بالتسجيل في مثل هذا الفصل.

ولما كان اليهود في مصر قد انقسموا بين أنفسهم حيال الدعوة الصهيونية، فقد كان من الطبيعي أن تعمد الباحثة إلى رصد أسباب هذا الخلاف ومظاهره.

وليس من شك أن قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م -بل وقبل ذلك منذ قرار التقسيم- فقد سبب حرجًا في صفوف بعض اليهود في مصر، وخلق حماسًا بين فئات أخرى منهم؛ فضلًا عن ذلك فقد خلق توجسات في دوائر الحكومة المصرية، وهي كلها ظواهر رصدتها الباحثة في الفصل الأخير من الدراسة.

ومع أنه قد يكون هناك ما كتب عن اليهود في مصر إلا أنه في تقديرنا أن الدكتورة سعيدة محمد حسني بما توخته من منهج علمي في وضع دراستها، قد قدمت لنا هذا اللون من الدراسات التي يمكن وصفها بأنها دراسة متكاملة من الناحية التاريخية.

وعلى الله قصد السبيل،،،

أ.د. يونان لبيب رزق

مقدمة

عاشت الطائفة اليهودية في مصر كأي طائفة دينية لها أنشطتها المختلفة، وكان النشاط الاقتصادي أبرز نشاط للطائفة اليهودية في مصر. ثم تأتي بعد ذلك الأنشطة الاجتماعية والثقافية.

والواقع أن علاقة اليهود بمصر علاقة قديمة قد تعود إلى زمن أبناء يعقوب[١]؛ حيث فتحت مصر أبوابها أمام اليهود، فهاجر العديد منهم، وخاصة بعد أن أستقدم يوسف بن يعقوب العديد من أهله فاستقروا في مصر، ومنحهم ملوكها من الفراعنة أراضي واسعة في شرق الدلتا[٢].

واستمر استقبال مصر للمهاجرين من اليهود، حتى أصبحت الإسكندرية في عصورها القديمة مركزًا من مراكز اليهود[٣]، وعند الفتح العربي لمصر نمت الطائفة اليهودية وشهدت ازدهارًا كبيرًا، وانتقل الكثيرون من هؤلاء اليهود إلى مدينة الفسطاط[٤] بعد أن أصبحت عاصمة لمصر الإسلامية.

---

(١) دكتورة خيرية قاسمية، دكتور علي إبراهيم عبده: يهود البلاد العربية، ص١٥٩.

(٢) فؤاد كرم: الأجانب في مصر -الجنسية المصرية -الطوائف الدينية في مصر، ص٦، ٧.

(٣) موريس شماس: الشيخ شبتاي وحكايات من حارة اليهود، ص٥.

(٤) دكتورة خيرية قاسمية، دكتور علي إبراهيم عبده: المرجع السابق، ص١٦٠.

ولعل هذا يوضح شيئًا هامًّا وهو أن اليهود كانوا دائمًا يفضلون الإقامة والاستقرار في العواصم والمدن الكبرى في مصر، مما سيتضح من عرض الفصول القادمة.

ومع الفتح العثماني لمصر سنة ١٥١٧ تمتع الكثير من أبناء هذه الطائفة اليهودية بنظام الامتيازات الأجنبية الذي طبقته الدولة العثمانية[١]؛ إلا أن نظام الامتيازات هذا لم يكن بالصورة التي أصبح عليها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ومع تولية محمد علي حكم مصر ١٨٠٥م حدثتْ عدة تغيرات أساسية في البناء الاقتصادي والاجتماعي لمصر[٢]، ولا شك أن هذه التغيرات قد انعكست على الطائفة اليهودية، مثلما انعكست على بقية الطوائف والأقليات خلال هذه الفترة في مصر؛ حيث شجع الأمن والاستقرار بعض يهود العالم على القدوم إلى البلاد، حيث فرص العمل أكثر وخاصة في الميدان المالي والتجاري.

وقد ازدهرت الطائفة اليهودية ازدهارًا لم تشهده من قبل، حتى النصف الأول من القرن العشرين.

حقيقة أن هذا الكتاب سيتعرض لدراسة أوضاع اليهود في مصر من سنة ١٨٨٢م إلى سنة ١٩٤٨م؛ ولكن قبل دراسة هذه الأوضاع لا بدَّ من إلقاء الضوء على يهود مصر قبل الفترة الزمنية المطروحة للبحث؛ بمعنى أنه لا بدَّ من

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب، ص٢.

(٢) Jacques Hassoun - Juifs du nil - p. ٨٣.

التعرض بالدراسة والتحليل لأوضاع اليهود خلال عصر إسماعيل من ١٨٦٣م إلى ١٨٧٩م.

وذلك العصر الذي يعتبر في مجموعه صورة لتاريخ مصر القومي والسياسي والاقتصادي[١].

فقد كان عصره من أحفل عصور مصر الحديثة بالتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية[٢]؛ إذ إن هذا العصر يعتبر عصر تقدم وعمران من ناحية، وعصر القروض والأخطاء المتتالية التي أفضتْ بمصر إلى التدخل الأجنبي من كافة شئونها، من ناحية أخرى.

وقد نتج عن هذا التدخل تدهور أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ إذ إن إسماعيل كان شخصية مسرفة، أنفق على أعمال العمران دون التفكير في ميزانية الدولة، وهي دولة نامية، وهل ستتحمل هذه المشروعات العمرانية أم لا؟ بل أكثر من ذلك استدان من الخارج لينفق على تزيين مصر؛ لإشباع رغبته في جعلها قطعة من أوربا. وقد كان يمكن لإسماعيل أن يسدد ديون سلفه سعيد؛ إذ إن الفرص كانت مهيئة أمامه لذلك؛ بسبب رفع سعر القطن المصري نتيجة للحرب الأهلية الأمريكية.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، الجزء الأول، ص٦٧.

(٢) الكاتب المصري، المجلد الخامس، ١٨ مارس سنة ١٩٤٧م، العدد ١٨، ص٢٥٩.

ولكن على العكس من ذلك استدان إسماعيل من البيوت المالية الأجنبية، وخاصة البيوت المالية اليهودية مثل بيت أوبن هايم[١]، وبيت روتشيلد وجوش وغيرهما من البيوت المالية الأوربية.

ومن خلال الإطلاع والبحث أتضح أن الاقتراض كان عادة سنوية عند إسماعيل، لا يقوى على التخلص منها[٢].

وقد ترتب على هذه العادة تراكم الديون على مصر، فارتبكت حالة مصر المالية[٣]، وخاصة أن القروض التي كان يقترضها إسماعيل لم تكن تصل قيمتها كاملة إلى الخزانة المصرية، بسبب السماسرة والوسطاء وأغلبهم يهود.

ونتج عن الارتباك المالي في مصر ارتباك سياسي واجتماعي، فتزعزعت ثقة البيوت المالية الأجنبية في قدرة مصر على سداد ديونها، مما دفع بإسماعيل إلى أن يطلب من إنجلترا أن ترسل بعثة لدراسة حالة مصر المالية، فلبت إنجلترا طلب إسماعيل، إذ كانت هذه هي رغبتها منذ زمن بعيد كما هو معروف.

وهاهي الفرصة قد واتتها لتحقق ما كانت قد أخفقت فيه من قبل؛ فكان الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م، وكانت السيطرة البريطانية عليها سيطرة تامة، لفترة تناهز أربع وسبعون عامًا.

---

(١) مجلة الرابطة العربية، السنة الثالثة، المجلد الخامس، جزء ١٠٣، ١ يونية ١٩٣٧م، ص٢٤.

(٢) عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، الجزء الثاني، ص٤٥.

(٣) الدكتور أحمد أحمد الحتة: تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، ص٤٠٩.

«وبعد هذه المقدمة سيتعرض هذا الكتاب لدراسة أوضاع اليهود في مصر خلال عصر إسماعيل؛ أي خلال الفترة التي سبقت الاحتلال مباشرة، لكي يمكن المقارنة ومعرفة مدى التغيير الذي طرأ على هؤلاء اليهود مع مجيء الاحتلال البريطاني، وازدياد وطأة التدخل الأجنبي في مصر».

وسيتضح ذلك فيما بعد.

المؤلف د. سعيدة محمد حسني